فقه أهل البيت عليهم السلام

فصليّة فقهيّة متخصّصة

الطبعة الثالثة

- بحث حول الصابئة
- حول أصناف الدية الستة / ٢
- المسائل المستحدثة في الفقه الاسلامي
- مداواة الرجل للمرأة
- دروس في علم الفقه / ٢

٤

العدد الرابع - السنة الاولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م

من فقهائنا

-٣-

الصدوق الثاني
محمد بن بابويه القمّي قدس سره

- القسم الأوّل -

❑ الشيخ صفاء الخزرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

تعتبر المئة الرابعة والخامسة من أخصب الفترات عطاءً وتميّزاً في تأريخ المذهب الإمامي ، ولا نبالغ إذا اعتبرناها عقد القلادة بين القرون الثلاثة الأُول وما تلا هذه الفترة من قرون[١] .

ففي هذه الحقبة بالذات تمّ تثبيت الهوية الفكرية والعلمية للتشيّع في زمن الغيبة بنحو أفضل ممّا سبق وحدّدت معالمه بنحو أدقّ ، بعد أن مرّ في أوائل أمر

الغيبة بمنعطفات حرجة كانت كلّ واحدة منها كافية لتقويض كيانه ومحو هويّته لولا رعاية الله . .

وتأتي أهمّية تلك الحقبة باعتبار أنّها تمثّل بدايات عصر الغيبة الكبرى ، ذلك التحوّل العظيم الذي طرأ على كيان التشيّع ، فنقله من تركيبته التي أَلِفَها قرابة القرنين من الزمن ـ والتي كانت تقوم على دعامتين أساسيّتين : القيادة المباشرة للمعصومين عليهم السلام ، والقاعدة المؤمنة بها ـ إلى مرحلة جديدة تفترض غياب القيادة في الظاهر ، وتصدّي القيادة النائبة الخاصّة المتمثّلة بالنواب الأربعة (رضى الله عنهم) ، والقيادة النائبة العامّة المتمثّلة بالفقهاء والعلماء قرون طويلة إلى أن ينفذ الله مشيئته في خلقه ويأذن بالظهور .

وقد اضطلع علماء تلك الحقبة المتاخمة لإعلان الغيبة الكبرى بمهمّة حفظ التشيّع وتحصينه من حالات التصدّع وعمليات التحريف أو التذويب والاحتواء .

وتحدّدت مسؤوليات أُولئك العظام (رضوان الله عليهم) في ثلاث محاور :

١ ـ حفظ القيادة والنائبة من تسلّل أصحاب الادّعاءات والانتهازيّين .

٢ ـ الردّ على أصحاب المقالات المشككّة في أمر الإمامة والغيبة ، وتحصين القاعدة المؤمنة وتخليصها من حالات اليأس والتردّد التي حاول الأعداء زرعها في نفوسهم بالنسبة إلى الغيبة بوجه خاصّ .

٣ ـ تحديد الهوية العلمية للتشيّع من خلال تصنيف الجوامع الرئيسية في الحديث والفقه والرجال والتفسير ، سيّما وأنّ رواسب المرحلة السابقة (ما قبل الغيبة) من الدسّ والتزوير في حديث أهل البيت (عليهم السلام) وضياع الأُصول الحديثيّة وغير ذلك كان يتطلّب وقفة حازمة ومسؤولة في هذا المجال .

كل هذا كان يلقي بأعباء المسؤولية على كاهل الفقهاء المعاصرين لتلك البرهة ، ويدفعهم لتحمّل واجبهم الديني . . ولقد قاموا ـ جزاهم الله خيراً ـ بالمأمول

خير قيام.

ومن هنا فقد تمخّض نشاط الفقهاء في القرن الرابع والخامس عن جملة أُمور تأسيسيّة تُعدّ من شواخص ذينك القرنين، وهي:

١ ـ حفظ الخطّ الأصيل للتشيّع من التمزّق والضياع؛ وذلك من خلال تثبيت فكرة الغيبة والدفاع عن مقام الإمامة، ودحض الشبهات الواردة في هذا المجال من داخل الوجود الشيعي وفرقه الأُخرى كالزيدية وهم العمدة، والإسماعيلية والكيسانية والواقفة[٢] أو من خارجه. ولذا نرى اشتداد الصراع الكلامي آنذاك وكثرة المناظرات والمقالات والمصنّفات في مثل هذه الأُمور على عهد الشيخ الصدوق والمفيد والسيّد المرتضى حتى أنّ الشيخ المفيد ـ أعلى الله مقامه ـ أفرد لوحده في موضوع الغيبة عشرة مصنّفات ما بين رسالة وكتاب ونقض وجواب[٣]، ووضع الشيخ الصدوق كتابه إكمال الدين وإتمام النعمة لدفع الحيرة عن الشيعة في أمر الغيبة، وله كتاب كبير آخر في الغيبة[٤]، كما أنّ لأبيه عليّ بن الحسين بن بابويه كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة[٥]، وللشيخ الطوسي أيضاً كتاب الغيبة معروف.

٢ ـ حفظ الأُصول الروائية الموروثة (الأربعمئة) وضبطها، وغربلة أسانيد الروايات ودراسة أحوال رجالها، وإقامة الفقه على أساس علمي واستدلالي رصين من خلال نقله من اطار الحديث والنقل وإدخال عنصر العقل والاستدلال في عملية الاستنباط والاجتهاد، ولا شكّ فإنّ ذلك يُعدّ خطوة عظيمة وقفزة كبيرة في تأريخ علم الفقه. ومن هنا فقد صُنِّفت الكتب الحديثيّة الأربعة في تلك الفترة والأُصول الرجالية، وفي تلك البرهة أيضاً تطوّر الفكر الأُصولي بشكل ملحوظ على يد الشيخ المفيد والسيّد المرتضى والشيخ الطوسي.

٣ ـ تأسيس أو تقوية الحوزات العلمية كحوزة بغداد والنجف في العراق وحوزة قم والريّ في ايران. وعليه فقد مهّد أُولئك الأعاظم الطريق أمام قوافل الفقهاء التي تلت عصرهم واقتفت أثرهم بحيث صارت كتبهم ومصنّفاتهم منهلاً لكلّ

شارب ومصدراً لكلّ باحث وطالب ، ومن هنا ندرك عظمة الجهد الذي بذلوه وأنّه لم يكن جهداً عادياً ولا يمكن مقايسته بجهود من تلاهم من الفقهاء ، ولو قلنا إنّ أصل وجود أُولئك الأكابر من الألطاف الإلهيّة التي منّ الله بها على هذه الأُمّة لحفظ الشريعة لما جانبنا الصدق والحقّ في ذلك .

وقد تبنّت مجلّة فقه أهل البيت عليهم السلام مهمّة التعريف بحياة الفقهاء ودراسة حياتهم في البُعد الفردي والعلمي منها ، فنشرت بحثين عن عَلمين من أعلام الأُمّة وفقهائها وهما ثقة الإسلام الشيخ محمّد بن يعقوب الكليني ، والشيخ الأجلّ عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (رضوان الله عليهما) ، وتتبنّى في هذا العدد تقديم مقال آخر عن أحد أعلام القرن الرابع الذين أحيوا الشريعة ، وهو :

الشيخ الصدوق الثاني[٦] :

رئيس المحدّثين على الإطلاق ، وفقيه الإمامية ووجههم ، صدوق الطائفة وملاذها وركن الملّة وعمادها ، ناصر الحقّ ورافع رايته ، وداحض شبهات الباطل وماحقه ، الذائد عن حمى الإمامة والدين ، المؤيّد بتأييدات ربّ العالمين ، شيخ مشايخ الإسلام والحجّة على الخاصّ والعامّ ، المولود بدعوة صاحب الأمر (عج) ، المخصوص بخفيّ رعايته وألطافه ، الشيخ الفقيه المحدّث أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي ، الملقّب في ألسنة الفقهاء بالصدوق ، كذا أثبت نسبه رحمه الله في أكثر كتبه ، ولم يتجاوز به بأكثر من جدّه بابويه .

لمحات عامّة :

ولد الشيخ الصدوق رحمه الله في محتدٍ طيّب وبلدة عريقة ، في مدينة قم موئل العلماء ومنبت الفضيلة ، وتربّى في وسط بيت رفيع من بيوتاتها كان قد عُرف بالصلاح والعلم وزعامة الدين ، فدرج في مقتبل أمره وعنفوان فتوّته يرتضع لبان المعارف والفضيلة ، ويرتشف من معين العلم على يد والده الفقيه المعظّم ذي الجلالة والشرف ، عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه المعروف بالصدوق الأوّل ،

وذلك خلال مدّة طويلة .

ثمّ اختلف من بعد أبيه ﷺ إلى أكابر المشايخ بقم يسمع منهم على حداثة سنّه ، فحاز إجازة الحديث والرواية عنهم .

ولمّا اشتدّ من العلم كاهله وصفت له مناهله وبلغ مبالغ العلماء العظام استقلّ بالتدريس ، وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حدث السن ، حتى تناهى صيته إلى كلّ بلاد الإسلام وأُمرائها ، فدعوه إلى بلادهم ، للإفادة من محضره والاستنارة بوهج علمه ، فلبّى نداء المسؤولية ، ويمّم وجهه إلى الري حيث كانت محطّته الأُولى في سلسلة أسفاره وتطوافه في البلاد المختلفة .

وقد كانت هجرة الشيخ الصدوق ﷺ من وطنه الأُمّ بقم بمثابة مرحلة جديدة في حياته ، انفتح من خلالها على حواضر العلم ومراكز الإشعاع الأُخرى في العالم الإسلامي ، لتبادل السماع والأسماع مع محدّثيها وأئمّة العلم فيها .

وبعد أن استقرّ به المقام في بلاد الري ـ التي كانت تعتبر جامعة علمية تزخر بالعلم وروّاد المعرفة ـ انطلق بعد ذلك إلى بلاد أُخرى ، فعرفته حواضرها وعلماؤها بالفضل والتقدّم من خلال ما سطّرته يراعته من مؤلّفات ناهزت الثلاثمئة كتاب[٧] ومن خلال مواقفه ومناظراته في أندية العلم دفاعاً عن المبدأ والحقيقة ، فذاع لذلك صيته وتألّق نجمه في الأوساط العلمية والاجتماعية ، وألقت إليه الأُمّة أمر زمامها ورجعت إليه من مختلف الأصقاع تسأله في قضاياها ، فكان وجه الطائفة وزعيمها في المئة الرابعة من بعد أبيه ، إلى أن التحق بالرفيق الأعلى بعد أن أدّى ما افترض عليه تجاه أُمّته ومجتمعه .

وهكذا كان الشيخ الصدوق إبّان حياته جامعة سيّارة بعلمها المتدفّق ، وكذلك بقي بعد رحيله جامعة عكفت على الدرس في أروقتها الأجيال ، وما فتئت يرتوي من معينها الأعيان والأبدال . فخلّد لنفسه في الدنيا ـ قبل غيره ـ ذكراً جميلاً ومجداً شامخاً ومقاماً رفيعاً ، وفي الآخرة مزيداً .

هذا ، وقد عرف علماؤنا العظام للشيخ الصدوق حقّه ومكانته الخاصّة لدى الأمّة فأطروه بكل مكرمة وجميل ، عرفاناً لفضله وإكباراً لشخصه وخدماته . . وإليك بعض الشذرات من كلامهم العطر حول هذه الشخصية الفذّة وإن كان يكفيه كلام حجّة العصر (عج) في وصفه ، ولو لم يذكر في حقّه سواه لكفى ، حيث ورد وصفه ﷺ في التوقيع الخارج من الناحية المقدّسة بأنّه فقيه ، خيّر ، مبارك ينفع الله به[٨] فطوبى لمن امتدحه حجّة الله بمثل هذا وحسن مآب ، وكفى به لصاحبه فخراً وعزّاً ، ولعمري فإنّ كلّ ما قيل غير هذا فهو دونه .

الصدوق في نظر الأعلام :

• قال شيخ الطائفة **الطوسي** في رجاله : جليل القدر حَفَظة ، بصير بالفقه والأخبار والرجال[٩] .

وشهد له شهادة أعلى وأضفى ، فقال في فهرسته : جليل القدر ، يكنّى أبا جعفر ، كان جليلاً حافظاً للأحاديث ، بصيراً بالرجال ، ناقداً للأخبار ، ولم يُر في القمّيين مثله في حفظه وكثرة علمه ، له نحو من ثلاثمئة مصنّف ، وفهرست كتبه معروف[١٠] .

ولك أن تتأمّل مليّاً في كلّ لفظة من تينك الشهادتين ، فإنّ قائلهما ممّن لا يجازف بالقول ، ولا يقول شططاً .

• وقال الرجالي الخبير ، الشيخ **أبو العبّاس النجاشي** : أبو جعفر نزيل الريّ ، شيخنا وفقيهنا ، ووجه الطائفة بخراسان ، وكان ورد بغداد سنة ٣٥٥ ، وسمع منه شيوخ الطائفة وهو حدث السن ، وله كتب كثيرة[١١] .

• وقال **الخطيب البغدادي** في تأريخه : كان من شيوخ الشيعة ، ومشهوري الرافضة حدّثنا عنه محمّد بن طلحة النعالي[١٢] .

• وفي سير **أعلام النبلاء للذهبي** : رأس الإمامية ، أبو جعفر محمّد بن العلّامة

عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي ، صاحب التصانيف السائرة بين الرافضة ، يضرب بحفظه المثل . يقال له : ثلاث مئة مصنّف[١٣] .

• وقال **العلّامة الحلّي** في رجاله[١٤] **وابن داود في رجاله**[١٥] بمثل قولي الشيخ والنجاشي ، فلا نعيد .

• وقال الشيخ المتقدّم **ابن إدريس الحلّي** في السرائر : كان ثقة جليل القدر ، بصيراً بالأخبار ، ناقداً للآثار ، عالماً بالرجال ، حَفَظة ، وهو أُستاذ شيخنا المفيد ، محمّد بن محمّد بن النعمان[١٦] .

• وأثنى عليه **الشيخ حسين بن عبدالصمد** والد الشيخ البهائي فقال : وكان هذا الشيخ جليل القدر عظيم المنزلة في الخاصّة والعامّة ، حافظاً للأحاديث بصيراً بالفقه والرجال والعلوم العقلية والنقلية ، ناقداً للأخبار ، شيخ الفرقة الناجية وفقيهها ووجهها بخراسان وعراق العجم ، وله أيضاً كتب جليلة . ثمّ قال : لم يُرَ في عصره مثله في حفظه وكثرة علمه[١٧] .

• ووصفه **المحقّق الكركي** في إحدى إجازاته بالإمامة والفقاهة فقال : الشيخ الإمام الفقيه المحدّث الرحلة ، إمام عصره أبي جعفر محمّد بن عليّ بن بابويه القمّي الملقّب بالصدوق (قدّس الله روحه) .

• وأطراه **الشهيد الأوّل** في إجازته لزين الدين عليّ بن الخازن بوصفه « الإمام ابن الإمام »[١٨] .

• ووصفه **المحقّق الداماد** بالصدوق ابن الصدوق وقال عنه أيضاً : عروة الإسلام أبي جعفر[١٩] .

• وقال **العلّامة المجلسي** ﷺ بعد أن أورد كلاماً للصدوق ﷺ : وإنّما أوردناه لكونه من عظماء القدماء التابعين لآثار الأئمّة النجباء عليهم السلام الذين لا يتّبعون الآراء والأهواء ، ولذا ينزّل أكثر أصحابنا كلامه وكلام أبيه (رضي الله عنهما) منزلة

النصّ المنقول والخبر المأثور[٢٠].

• وقال **المحقّق التستري** في مقابسه: الصدوق رئيس المحدّثين ومحيي معالم الدين، الحاوي لمجامع الفضائل والمكارم، المولود كأخيه بدعاء الإمام العسكري أو دعاء القائم عليه السلام بعد سؤال والده له بالمكاتبة أو غيرها أو بدعائهما صلوات الله عليهما، الشيخ الحَفَظة ووجه الطائفة المستحفظة، عماد الدين أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي الخراساني الرازي (طيّب الله ثراه ورفع في الجنان مثواه)[٢١].

وفي إجازة المحقّق الكركي - في إجازته للشيخ صفي الدين عيسى - وصفه بالشيخ الحافظ المحدّث الرحلة المصنّف الكنز الثقة الصدوق[٢٢].

• ووصفه الشيخ **حسن ابن الشهيد** في إجازته للسيّد نجم الدين، بالشيخ الإمام الصدوق الفقية[٢٣].

• وفي الفوائد الرجالية لآية الله **المحقّق السيّد بحر العلوم** «شيخ من مشايخ الشيعة، وركن من أركان الشريعة رئيس المحدّثين، والصدوق فيما يرويه عن الأئمّة الصادقين عليهم السلام، ولد بدعاء صاحب الأمر والعصر عليه السلام ونال بذلك عظيم الفضل والفخر، ووصفه الإمام عليه السلام في التوقيع الخارج من الناحية المقدّسة بأنّه: فقيه خيّر مبارك ينفع الله به.

فعمّت بركته الأنام، وانتفع به الخاصّ والعامّ وبقيت آثاره ومصنّفاته مدى الأيام وعمّ الانتفاع بفقهه وحديثه فقهاء الأصحاب ومن لا يحضره الفقيه من العوام. وقال في موضع آخر عنه: وكيف كان فوثاقة الصدوق أمر ظاهر جلي، بل معلوم ضروري كوثاقة أبي ذرّ وسلمان، ولو لم يكن إلّا اشتهاره بين علماء الأصحاب بلقبيه المعروفين - يقصد رئيس المحدّثين والصدوق - لكفى في هذا الباب[٢٤].

كانت هذه شمّة من كلام الأعلام والفقهاء في حقّ شيخنا الصدوق (قدّس الله

نفسه) ، وقد تصافقت كلماتهم ـ كما عرفت ـ وكلمات غيرهم ممّن أعرضنا نقل عن كلامه خوف الملال على تبجيله وتعظيمه ووصفه بالإمامة والفقاهة والوجاهة والنبل والتضلّع في علوم جمّة كالفقه والحديث والتفسير والرجال وغيرها .

ولادته :

غمرت الرعاية الإلهية شيخنا الصدوق ﵀ منذ بداية أمره . . وحفّته في مقتبل شبابه وفتوّته عندما كان يحفظ ما لا يحفظه غيره حتى أنّه سمع عنه شيوخ الطائفة وهو حدث السن . . وظلّلته كهلاً ثمّ شيخاً . .

ولنا أن نتلمّس البوادر الأُولى من تلك الرعاية فيما ظهر من أمر ولادته المباركة ، حيث كانت بدعاء صاحب الأمر (عج) عندما طلب منه والد الصدوق (عليه الرحمة) ذلك ، ولقد كان الشيخ الصدوق يفتخر ذلك ويقول : أنا ولدت بدعوة صاحب الأمر (عج)[٢٥] .

ويحدّثنا شيخنا المترجم بنفسه عن قصّة ولادته فيقول :

حدّثنا أبو جعفر محمّد بن عليّ الأسود قال : سألني عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه ﵀ بعد موت محمّد بن عثمان العمري ﵁ أنّ أسأل أبا القاسم الروحي أن يسأل مولانا صاحب الزمان ﷺ أن يدعو الله عزّ وجلّ أن يرزقه ولداً ذكراً . قال فسألته فأنهى ذلك فأخبرني بعد ذلك بثلاثة أيام أنّه قد دعا لعليّ بن الحسين ، وأنّه سيولد له ولد مبارك ينفع الله به ، وبعده أولاد[٢٦] .

وذكر الشيخ الطوسي ﵀ في (كتاب الغيبة) كلاماً أكثر تفصيلاً ، حول الأمر الذي حمل والد الصدوق ﵀ على مكاتبة الناحية وطلب الولد منها ـ لأكثر من مرّة ـ فقال :

عن أبي العبّاس بن نوح عن أبي عبدالله الحسين بن محمّد بن سورة القمّي ـ حين قدم علينا حاجّاً ـ قال : حدّثني عليّ بن الحسين بن يوسف الصائغ القمّي ،

ومحمّد بن أحمد بن محمّد الصيرفي المعروف بابن الدلّال وغيرهما من مشايخ أهل قم ، أنّ عليّ بن الحسين بن بابويه كانت تحته بنت عمّه محمّد بن موسى بن بابويه فلم يرزق منها ولداً ، فكتب إلى الشيخ أبي القاسم رحمه الله أن يسأل الحضرة أن يدعو الله أن يرزقه أولاداً فقهاء . فجاء الجواب : إنّك لا ترزق من هذه ، وستملك جارية ديلمية وترزق منها ولدين فقيهين[٢٧] .

وفي رجال النجاشي أنّ عليّ بن الحسين رحمه الله قدِم العراق واجتمع مع أبي القاسم الحسين بن روح رحمه الله وسأله مسائل ثمّ كاتبه بعد ذلك على يد عليّ بن جعفر بن الأسود يسأله أن يوصل له رقعة إلى الصاحب عليه السلام ويسأله فيها الولد ، فكتب إليه : قد دعونا الله لك بذلك وسترزق ولدين ذكرين خيّرين[٢٨] .

ولم يذهب غير بعيد حتى كان الأمر كما أمّل ابن بابويه رحمه الله ورجا ، فقد ملك الجارية الديلمية وولدت له ولده الموعود فقرّت بذلك عينه وطابت به نفسه وكان ذلك المولود هو محمّد بن عليّ الصدوق أكبر ولده وأفقههم ، ثمّ ولدت له الحسين بن عليّ وقد كان آية في الحفظ والنباهة والفقاهة ، إلّا أنّه لا يبلغ شأو أخيه الصدوق . هذا ولم يُضبط تأريخ ولادة الشيخ الصدوق على نحو التحديد ، إلّا أنّها كانت بعد وفاة العمري محمّد بن عثمان رحمه الله السفير الثاني كما عرفت ذلك من نقل الصدوق رحمه الله المتقدّم وفي أوّل سنيّ سفارة أبي القاسم الحسين بن روح رحمه الله . وقد كانت وفاة العمري سنة ٣٠٥ كما ذكر ابن الأثير ذلك في حوادث تلك السنة من تأريخه[٢٩] ، ولعلّها كانت سنة ٣٠٦ إذا لاحظنا مدّة رجوع جواب الإمام عليه السلام من سامراء إلى عليّ بن بابويه بقم وامتلاكه الجارية وما يستغرقه الحمل من وقت .

قال العلّامة المحقّق السيّد بحر العلوم في فوائده : ولد بعد وفاة العمري في أوائل سفارة الحسين بن روح وقد كانت وفاة العمري سنة ٣٠٥ فيكون قد أدرك من الطبقة السابعة فوق الأربعين ومن الثامنة إحدى وثلاثين ، ويكون عمره نيفاً وسبعين سنة ، ومقامه مع والده ومع شيخه الكليني في الغيبة الصغرى نيفاً

وعشرين سنة فإن وفاتهما سنة ٣٢٩ وهي سنة وفاة السمري آخر السفراء[٣٠].

وعلى هذا يكون الشيخ الصدوق ﷺ قد عاصر في عهد الغيبة الصغرى سفيرين من السفراء الأربعة هما: الحسين بن روح والسمري (رضي الله عنهما).

ولقد كان أمر ولادته بدعاء الإمام (عج) ذائعاً عند القمّيّين يعرفه الخاصّ والعامّ، ففي الغيبة للشيخ الطوسي: كان أهل قم يتعجّبون من حفظهما ـ الصدوق وأخيه ـ فكلّما رويا شيئاً قال الناس: هذا الشأن خصوصية لكما بدعوة الإمام عليه السلام، وهذا أمر مستفيض في أهل قم[٣١]. إلّا أنّه ورد في كتاب عقيدة الشيعة للمستشرق دوايت م. رونلدس: إنّ ولادة الصدوق كانت بخراسان أثناء زيارة والده لمشهد الرضا عليه السلام[٣٢]. ولم يذكر مأخذه في ذلك. ولم ينقله أحد ممّن تعرّض لأحواله، فالصحيح أنّ ولادته كانت بقم.

وعلى كلّ حال، فلا يخفى ما لهذه الواقعة من دلالة خاصّة تدلّ على عظمة عليّ بن بابويه وولده الصدوق لدى الناحية المقدّسة، ولا شكّ أنّها زادت من جلالة وقدر أُسرة آل بابويه في المجتمع القمّي.

ولنطو الكلام عن ولادته بكلام للعلّامة المحقّق بحر العلوم واصفاً أحاديث ولادته بالقول: «إنّ هذه الأحاديث تدلّ على عِظم منزلة الصدوق وكونه أحد دلائل الإمام عليه السلام، فإن تولّده مقارناً لدعوة الإمام عليه السلام وتبيّنه بالنعت والصفة من معجزاته (صلوات الله عليه)، ووصفه بالفقاهة والنفع والبركة دليل على عدالته ووثاقته . . . »[٣٣].

مقوّمات شخصيّته:

لا شكّ أنّ شخصيّة فذّة كالشيخ الصدوق لم تكن وليدة ساعتها، بل هي وليدة عقود من الزمن اختلجت بتجارب عسيرة ومعاناة طويلة انجبت شخصية عملاقة كالشيخ الصدوق. ذلك أنّا عندما نلهج باسم الصدوق ونترجم له لا نريد أن

نتحدّث عن ذات كانت ثمّ مضت ، فإنّ الشيخ الصدوق لا يعني ذاتاً خارجية بقدر ما يعني تراثاً علمياً ضخماً وعطاءً دينياً ثرّاً ، فالألقاب التي أحاطت - بحقّ -بشخصيّته كالإمامة والفقاهة ورئاسة المحدّثين وغيرها من النعوت لم تأت عن فراغ أو مجاملة في التعبير بقدر ما تعكسه من محتوى وجوهر هذه الشخصية وما جادت به من تراث خالد وخدمات جليلة . ولو أردنا تحديداً دقيقاً لأهمّ العوامل والمقوّمات التي ساهمت في صناعة ذلك الجوهر الناصع وتظافرت على صياغة أبعاد تلك الشخصية المرموقة ورسمت معالمها الأصيلة لوجدنا في الصدارة من تلك المقوّمات عامل التسديد الإلهي والرعاية الربّانية الخاصّة التي رعته في جميع أدوار حياته ، حيث جادت عليه الظروف بمناخ علمي وديني في حاضرة العلم آنذاك بقم المشرّفة ، كما زوّدته يد الرعاية الإلهية باستعداد مفرط ، وذكاء وحفظ شديدين بحيث كان ، يحفظ ما لا يحفظه غيره من أهل قم(٣٤) .

وفوق كلّ ذلك نشأته في ظلّ والده المعظّم ، الفقيه الوجيه عليّ بن بابويه الذي كان له القسط الأوفر في تكوين شخصية ولده الصدوق رحمه الله .

وأمّا سائر المقوّمات والعوامل الأُخرى المؤثّرة في تقويم وتكوين شخصية شيخنا المترجم فيمكن الإشارة إليها في أُمور نعقد الحديث حولها ، وهي :

(أُسرته * بيئته * عصره * رحلاته * شيوخه * قدراته الذاتية)

١ - أُسرته :

إنّ من يقرأ تاريخ الأُمم والشعوب ، يجد أصنافاً من الأُسر والبيوتات التي عُرفت بالسياسة والحكم أو بالثروة والمال أو بالعلم والتقى أو بغير ذلك من الأُمور التي تميّزها وترفع من قدرها . ولا شكّ فإنّ خيرها من عُرف بالعلم والصلاح ، فالعلماء باقون ما بقي الدهر . ومن الأُسر التي يُشار إليها بالبنان في حاضرة العلم بقم بل في العالم الإسلامي فى القرن الرابع الهجري ، هي أُسرة آل بابويه ، تلك

الأُسرة التي شهد الفضل بفضلها والشرف بشرفها وعرفت بالعراقة والسؤدد والمجد، فهي باسقة الأفنان، عالية البنيان قد نبغ منها ثلّة من أئمّة العلم وجهابذته، وحملة الفقه وسدنته، يأتي على رأسهم الفقيه الجليل والمحدّث النبيل، الشيخ أبو الحسن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه الذي أطبقت الطائفة على علوّ مرتبته وارتفاع كعبه، حتى أنّ أكثر أصحابنا ينزّلون كلامه منزلة النصّ المنقول والخبر المأثور كما نقل ذلك العلّامة المجلسي[٣٥]، وعلى كل حال فإنّ أمره في الفقاهة والجلالة والفهم والعلم أعلى من أن تحوم فوقه العبارة أو تحيطه الإشارة ويكفيه فخراً خطاب الإمام العسكري عليه السلام له ـ على ما في الرسالة المنقولة عنه عليه السلام ـ بالفقاهة والشيخوخة حيث جاء في كتابه عليه السلام: «... أمّا بعد: أوصيك يا شيخي ومعتمدي وفقيهي أبا الحسن عليّ بن الحسين القمّي وفّقك الله لمرضاته وجعل من صلبك أولاداً صالحين برحمته، بتقوى الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» الكتاب[٣٦].

وإليه يعود الفضل في اشتهار أُسرته حتى طار صيتها في الآفاق، واستوى صفّها مع سائر الأُسر والبيوتات المعروفة في التأريخ، إذ لم يحدّثنا التاريخ وكتب المعاجم عن أبيه وجدّه موسى وجدّه الأعلى بابويه القمّي الذي عُرفت الأُسرة بعد ذلك باسمه، كما أنّه لم يحدّثنا التاريخ أيضاً عن مبدأ سكناهم بقم.

ومن أشهر أعلام هذه الأُسرة أخو المترجَم الحسين بن عليّ بن الحسين بن بابويه الذي ولد أيضاً بدعاء الإمام الحجّة (عج)، ويعتبر من أكابر الفقهاء والصلحاء، وقد كان شريكاً لأخيه الصدوق في موهبة الحفظ والفطانة وعقد مجلس البحث وله من العمر دون العشرين، وكان محمّد بن عليّ الأسود ربّما يحضر مجلسه فإذا رأى إسراعه في الجواب في الحلال والحرام يُكثر التعجّب لصغر سنّه ثمّ يقول: لا عجب لأنّك ولدت بدعاء الإمام عليه السلام[٣٧].

ولهما أخ ثالث هو الحسن بن عليّ وهو الأوسط، قال صاحب رياض العلماء في أحوال هذا الفقيه العظيم: «هو وأخوه الصدوق وابن هذا الشيخ وسبطه وأحفاده

نازلاً إلى زمن الشيخ منتجب الدين كلّهم كانوا من أكابر العلماء ، ولم أعثر فيما بعد الشيخ منتجب الدين كيف كانت أحوالهم ، وقد كان الشيخ منتجب الدين من أعاظم أسباطه ، وأمّا سلسلة الصدوق فالظاهر أنّه لم يكن منهم عالم سوى ولد الصدوق ، فلاحظ »[٣٨] . وقد توفّي الحسين بن عليّ بعد أخيه الصدوق سنة ٤١٨هـ. روى الشيخ في الغيبة عن أبي عبدالله بن سورة قال : ولأبي الحسن بن بابويه ﷺ ثلاثة أولاد : محمّد والحسين فقيهان ماهران في الحفظ ، ويحفظان ما لا يحفظه غيرهما من أهل قم ، ولهما أخ اسمه الحسن وهو الأوسط مشتغل بالعبادة والزهد ولا يختلط بالناس ولا فقه له[٣٩] .

ومن أكابر هذا البيت وأعاظمهم شمس الإسلام الحسن بن الحسين نزيل الري المدعو (حسكا) قرأ على شيخ الطائفة الطوسي جميع تصانيفه بالغري وكذا قرأ على الشيخ سلّار والقاضي ابن البرّاج جميع تصانيفهما [٤٠] .

وأيضاً من أعلامهم الثقات المشاهير الشيخ منتجب الدين أبو الحسن عليّ بن عبيدالله بن الحسن (حسكا) وهو من أحفاد الحسين بن عليّ أخو الصدوق . وكان من ثقات المحدّثين قال عنه الشهيد الثاني في شرح درايته : « ومنتجب الدين واسع الطرق كثير الرواية عن آبائه وأقاربه وأسلافه ... إلخ »[٤١] .

وغير هؤلاء من أعلام هذا البيت الرفيع كثيرون لا يأتي عليهم المجال لعدهم ، وقد أفرد المحقّق الشيخ سليمان البحراني رسالة في تعداد أولاد بابويه ذكر فيها خمسة عشر اسماً من أعلامهم[٤٢] . وقد ذكر في رياض العلماء ترجمة عدّة منهم[٤٣] .

قال العلّامة المامقاني : « وأولاد بابويه كثيرون جدّاً وأكثرهم علماء أجلّة[٤٤] وفي الرياض : « كلّهم كانوا من أكابر العلماء »[٤٥] .

فالشيخ الصدوق إذن غصن من أغصان هذه الدوحة النضرة وثمرة من أفنان تلك الشجرة الباسقة ، قد ولد في مثل هذه الأُسرة الطيّبة الأعراق الطاهرة

الإنساب درج وتربّى في أحضان الفضيلة، تحت رعاية والده الزاهد العابد العالم الذي كان يرفع له في كلّ يوم من العلم والتقى علماً .. كيف وهو أُمنيته التي طالما دعا الله تعالى أن يحقّقها فكان كما أراد ورجا، وتوسّم فيه الخير والنفع كما جاء في التوقيع الشريف. فحرص على تربيته وتغذيته من علومه وكمالاته الروحية، وشعّ على نفسه من صفائه وأغدق عليه من فيض علومه فصقل روحه وعقله وصهر معدنه وجوهره حتى صار مثالاً له بعد ملازمة بينهما فاقت العشرين عامّاً.

أجل، لقد كان لأبي الحسن بن بابويه الأثر الكبير في تكوين وتطوير شخصيّة ولده العلمية، حتى كاد أن ينعكس أثره في مجمل العطاء العلمي للشيخ الصدوق. فهذا الخطيب البغدادي يروي أنّ الصدوق ﷺ عند ما ورد بغداد حدّث فيها عن أبيه[٤٦] علماً بأنّ وفاة أبيه كانت سنة ٣٢٩ وبينه وبين وروده لبغداد أكثر من عشرين عامّاً الأمر الذي يُظهر عنايته بفقه وحديث أبيه على الرغم من سماعه وتحمّله عن غيره من المشايخ طيلة هذه الفترة. ونقل ابن النديم في فهرسته أنّه قرأ على ظهر نسخة وجدها بخطّ الصدوق «أجزت لفلان ابن فلان كتب أبي عليّ بن الحسين وهي مئتا كتاب وكتبي وهي ثمانية عشر كتاباً»[٤٧].

ولك أن تتأمّل تراث الشيخ الصدوق فإنّه يُنبئك عن غزارة النقل عن أبيه في مجموع مصنّفاته الثلاثمئة، التي ضنّ الدهر علينا بالكثير منها، بيْدَ أنّ ما وصلنا منها وظفرنا به يُنبئ عمّا فاتنا.

وإلى القارىء الفاضل بعض الاحصائيات المقارنة بين ما رواه عن كلّ واحد من أعيان مشايخه ممّن أكثر الرواية عنهم في مصنّفاته وهم: والده أبوالحسن بن بابويه، وشيخه المعظّم محمّد بن الحسن بن الوليد، ومحمّد بن موسى المتوكّل ومحمّد بن عليّ ماجيلويه وأحمد بن محمّد بن يحيى العطّار وعليّ بن أحمد الدقّاق، لنرى تفوق ما يرويه عن أبيه وعنايته بتراثه، الأمر الذي يعكس حرص والده طيلة عشرين عامّاً أو أكثر على أن يُسمع ولده أكثر ما يمكن من الرواية والحديث.

الكتـــاب	والد الصدوق	ابن الوليد	الدقّاق	ماجيلويه	أحمد بن محمّد العطّار	ابن المتوكل
من لا يحضره الفقيه	٢٣١	١٣٦	٧	٥٣	٥	٤٣
الخصال	٤٥٨	١٧٩	—	٧٨	٤٢	٥٧
الأمالي	١٧٨	٩٧	٢٧	٥٣	٤٤	٨٧
معاني الأخبار	٣١٦	١١٥	١٠	٣٣	٤	٤١
التوحيد	١٥٠	١٠٠	٦٩	٢٣	١٧	٤١

والذي ينبغي التنبيه عليه هو أنّ ما ذكرناه من الأرقام عن (من لا يحضره الفقيه) إنّما هو بلحاظ طرقه إلى مشايخه المذكورين ، وقد استقصينا ذلك من مشيخة الفقيه ، لا بلحاظ موارد الرواية عنهم في الكتاب ، وإلّا لكانت الإحصائية أضعاف ما ذكرنا [٤٨] ، وما ذُكر كافٍ للقياس عليه .

٢ ـ بيئته :

بعد أن هاجر الأشعريّون إلى قم من ظلم الحجّاج واستوطنوها ، أضحت هذه البلدة المباركة موئلاً لأتباع أهل البيت عليهم السلام ، وقلعة من قلاع التشيّع المنيعة .

قال الحموي : وهي ـ قم ـ كبيرة حسنة طيبة وأهلها كلّهم شيعة إماميّة[٤٩] .
وقد ورد في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام يصف أهل قم « هم أهل ركوع وسجود وخشوع وسجود وقيام وقعود ، هم الفقهاء العلماء ، هم أهل الدراية والرواية وحسن العبادة »[٥٠] .

وقد زادها الله شرفاً بأن جعل تربتها محلّاً لجثمان البضعة الطاهرة فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى الكاظم عليه السلام وغيرها من ذراري الأئمّة المعصومين عليهم السلام ممّا عزّز من مكانتها الروحية لدى الشيعة[٥١] .

والذي يظهر أن بدايات اقتران اسم هذه البلدة بالعلم وبحديث أهل البيت عليهم السلام كان على يد إبراهيم بن هاشم أبو إسحاق الكوفي الذي انتقل إليها من الكوفة ،

ولا يبعد أن يكون السبب في هجرته الظروف السياسية التي كانت تمرّ به الكوفة آنذاك. قال الشيخ النجاشي والطوسي: «وأصحابنا يقولون أوّل من نشر حديث الكوفيّين بقم هو»[٥٢].

وذكر الكشيّ ـ على ما نسب إليه ـ أنّه كان من تلامذة يونس بن عبدالرحمن وأصحاب الرضا عليه السلام[٥٣] وقد كانت قم على مرّ تلك العصور آهلة بالعلماء وحملة الحديث، عامرة بحلقات الدرس حتى لا يكاد يُرى فيها إلّا عالم أو متعلّم، يشهد لذلك أنّها كانت مولداً ومنزلاً ومدفناً لجملة كبيرة من الفقهاء والمحدّثين، وخرّجت مدرستها رعيلاً من الأفذاذ من أضراب:

أحمد بن محمّد بن عيسى الأشعري القمّي أبو جعفر: شيخ القمّيّين ووجههم بقم وفقيههم، وكان الرئيس الذي يلقى السلطان بها، لقى أبا الحسن الرضا وأبا جعفر الجواد وأبا الحسن الهادي عليهم السلام ثقة عظيم له كتب عديدة منها كتاب (النوادر)[٥٤].

محمّد بن أحمد بن يحيى بن عمران الأشعري القمّي أبو جعفر: جليل القدر ثقة في الحديث كثير الروايات له كتب منها كتاب (نوادر الحكمة) وهو كتاب حسن كبير يعرفه القمّيّون (بدبّة شبيب)[٥٥].

سعد بن عبدالله بن أبي خلف الأشعري القمّي أبو القاسم: ثقة جليل واسع الأخبار كثير التصانيف. قال النجاشي: شيخ هذه الطائفة وفقيهها وجهها. له كتاب (الرحمة) وغيرها. توفّي ٣٠١ أو ٢٩٩[٥٦].

إسماعيل بن آدم بن عبدالله بن سعد الأشعري: قال النجاشي عنه وجه القمّيّين ثقة[٥٧].

عليّ بن إبراهيم شيخ ثقة الإسلام الكليني: الذي كان حيّاً سنة ٣٠٧، ثقة في الحديث، ثبت، معتمد، صنّف كتباً، صحيح المذهب[٥٨].

علي بن الحسين بن بابويه القمّي: والد شيخنا الصدوق، وأمره في الجلالة

والوثاقة والوجاهة فوق ما تحوم عليه العبارة. وهو ممّن كاتب الناحية المقدّسة (عج) واجتمع بسفيرها أبي القاسم الحسين بن روح ﷺ. وله كتاب الشرائع في الفقه وغيرها. وتوفّي سنة ٣٢٩[٥٩].

محمّد بن الحسن بن الوليد: شيخ القمّيّين، وفقيههم ومتقدّمهم ووجههم ثقة ثقة، جليل القدر مسكون إليه، مات سنة ٣٤٣. وله كتب منها كتاب « الجامع » و« كتاب التفسير »[٦٠].

أحمد بن محمّد بن خالد البرقي: أصله كوفي، هرب جدّه خالد مع أبيه عبدالرحمن إلى برقة قم على أثر حبس ومقتل جدّه الأعلى محمّد بن عليّ على يد يوسف بن عمر والي العراق بعد مقتل زيد بن عليّ عليه السلام. وكان أحمد ثقة في نفسه له تصانيف كثيرة منها كتاب المحاسن، ويشتمل على كتب عدّة[٦١].

الحسين بن محمّد بن قولويه: أُستاذ الشيخ المفيد وتلميذ الشيخ الكليني، قال النجاشي في حقّه: وكان أبو القاسم من ثقات أصحابنا وأجلّائهم في الحديث والفقه، وله كتب حسان[٦٢].

هذه كوكبة من الأعلام الذين حفلت بهم بلدة قم (حرسها الله وزادها شرفاً).

وأيضاً من الدلائل على عراقة هذه البلدة واشتهارها بالعلم والفضل، تشرّف تربتها بأجساد طائفة كبيرة من العلماء والصلحاء ذكرهم العلّامة المجلسي في تحفة الزائر من أمثال زكريا بن آدم، وزكريا بن إدريس وعليّ بن بابويه وآدم بن إسحاق.

وقد عاشت قم في زمن الشيخ الصدوق وأبيه (رضوان الله عليهما) أزهى عصورها؛ حيث نفقت فيها سوق العلم وراجت في أنديتها بضاعة الحديث واكتضّت أروقتها بطلّاب المعرفة، وتبوّء مقعد المشيخة فيها أئمّة العلم ومشايخ الرواية من أمثال الشيخ محمّد بن الحسن بن الوليد (م٣٤٣) وأضرابه من المشايخ العظام.

وقد ذكر المجلسي الأوّل في شرحه على من لا يحضره الفقيه الموسوم باللوامع أنّه قرأ في كتابٍ أنّ في زمن عليّ بن بابويه (والد الصدوق المتوفّى سنة ٣٢٩) كان بقم مئتا ألف محدّث »[٦٣] .

إلّا أنّ هذا الرقم في غاية الغرابة ، فمن المستبعد جدّاً تواجد هذا العدد الضخم الهائل بقم في ذلك الزمان ، إذ ذكر صاحب كتاب تاريخ قم[٦٤] ـ الحسن بن محمّد بن الحسن القمّي المتوفّى ٣٧٨ من معاصري الشيخ الصدوق ـ عدداً من علماء الخاصّة بقم من أصحاب المصنّفات والخواص في عصره وعدّة من ذكرهم ٢٦٦ شخصاً وذكر من أعلام العامّة ١٤ نفراً ثمّ تعرّض لمصنفات كلّ واحد منهم!

وحتى لو أضفنا لهذه الإحصائية (٢٦٦) أضعاف أضعافها ـ باعتبار أنّها لأكابر العلماء وأرباب الحديث وأصحاب التصانيف) ـ ممّن هم دونهم في الفضل والمرتبة فإنّه لا يبلغ أيضاً ما ذكره المجلسي الأوّل ﷺ .

والذي يُعزّز وجود الاستغراب أيضاً أنّ نفس العلّامة المجلسي الأوّل التفت لذلك فأراد توجيهه بقوله : « والذي يظهر أنّ الوجه في ذلك هو أنّ الخواص والعوام كانوا يعملون بالأحاديث ويحفظونها »[٦٥] .

إلّا أنّ هذا التوجيه لا يمكن القبول به؛ لأنّ لفظ المحدّث الوارد في كلامه لا يطلق كما هو واضح على من يحفظ حديثاً أو حديثين ، بل يراد بها من أجازه الشيوخ بالرواية عنهم ، ولا يُجاز بذلك إلّا من حفظ وأكثر السماع وحبّر دفاتره بالكثير ممّا سمع ، خصوصاً لو لاحظنا المجتمع القمّي آنذاك وتشدّد مشايخه في الإجازة والرواية . وحينئذٍ فمن المستبعد أن ينبغ مئتا ألف محدّث في مثل تلك الآونة .

وممّا يعضد هذا الاستبعاد أيضاً أنّ عدد طلّاب العلوم الدينية في عصرنا بقم لا يتجاوز الثلاثين ألف طالب وعالم ، مع الأخذ بنظر الاعتبار الاتّساع المفترض في

هذه المدينة طيلة القرون المتمادية، إضافة للتضخّم السكّاني الحاصل فيها اليوم.

كلّ هذا يبعّد ما أفاده العلّامة المجلسي الأوّل، وحتّى على فرض وقوع التصحيف في عبارته وأنّ الصحيح هو عشرون ألف[٦٦] فإنّ الأمر أيضاً لا يخلو من غرابة بملاحظة ما ذكرناه.

إلّا أنّ ذلك كلّه لا يمنع بالطبع من وجود أعداد غفيرة وجموع كثيرة من روّاد العلم وأكابر الفقهاء والمحدّثين في هذه المدينة المشرّفة، التي هي من أوضح مصاديق قوله تبارك وتعالى: «والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه»[٦٧].

وعلى كلّ حال، فقد اختصّت قم بموقع علمي مرموق ومكانة سامية لدى علماء الطائفة نتيجة دقّة وتشدّد علمائها ومحدّثيها، حتى أضحت آراؤهم ومرويّاتهم مقياساً يقاس به صحّة الحديث والخبر عند الآخرين، كما يستفاد ذلك من مكاتبة السفير الثالث الشيخ الأجل أبي القاسم الحسين بن روح النوبختي (م٣٢٦) حين أنفذ كتابه (التأديب) إلى قم يطلب من علمائها النظر في كتابه هذا قائلاً لهم: «انظروا ما في هذا الكتاب وانظروا» فيه شيء يخالفكم؟ فكتبوا إليه: أنّه كلّه صحيح وما فيه شيء يخالف إلّا قوله في الصاع ...»[٦٨].

وأمّا الريّ موطنه الثاني[٦٩]، فقد كانت آهلة بالعلماء والمحدّثين من كلا الفريقين، عامرة بمكتباتها كمكتبة الصاحب بن عبّاد ومكتبة ابن العميد[٧٠] ومكتبة شرف الدين أبي الفضل محمّد بن عليّ بن المطهّر نقيب النقباء في الريّ[٧١].

وقد خرّجت جامعة الريّ طبقة من الأعيان، من نظائر ثقة الإسلام الكليني (قدّس رمسه) وخاله وشيخه الأجلّ علّان الرازي الكليني الذي وصفه النجاشي بأنّه شيخ أصحابنا ووجههم بالريّ[٧٢].

والشيخ الأجلّ أبي عليّ بن عبدربّه الرازي القطّان وصفه الشيخ الصدوق بأنّه شيخ كبير لأصحاب الحديث، وقال عنه أيضاً «كان شيخاً لأصحاب الحديث ببلد

الريّ يعرف بأبي علي ابن عبد ربّه »[٧٣] . ومن أعيان العامّة فيها أبو بكر محمّد بن زكريا الرازي الحكيم صاحب كتاب من لا يحضره الغيب (م ٣١١) ، وعبدالرحمن بن محمّد بن إدريس الرازي أحد الحفّاظ صنّف الجرح والتعديل ، توفّي سنة ٣٢٧ ، وإسماعيل بن عليّ بن الحسين بن محمّد بن زنجويه المعروف بالسمّان الحافظ وكان من المكثرين توفّي سنة ٤٤٥ وكان معتزلياً ، ومحمّد بن عبدالله بن جعفر بن عبدالله بن الجنيد أبو الحسين الرازي وكان حافظاً مكثراً توفّي سنة ٣٤٧ وأبو زرعة الحافظ الرازي وغيرهم[٧٤] .

قال ياقوت : وكان أهل الريّ أهل سنّة وجماعة إلى أن تغلّب أحمد بن الحسن المارداني عليها فأظهر التشيّع وأكرم أهله وقرّبهم فتقرّب إليه الناس بتصنيف الكتب . وكان ذلك في أيام المعتمد وتغلّبه عليها في سنة ٢٧٥ ، واستمر إلى الآن . وفي موضع آخر قال : كان أهل المدينة ـ يقصد الريّ ـ ثلاثة طوائف : شافعيّة وهم الأقلّ ، وحنفية وهم الأكثر ، وشيعة وهم السواد الأعظم[٧٥] .

وأمّا الجانب الأمني واستقرار الوضع الداخلي في كلتا الحاضرتين (قم والريّ) في القرن الرابع الهجري فقد كان أمراً نسبياً إذا ما قسناه ببغداد حيث كانت تلتهب بالفتن والاضطرابات التي عصفت باستقرارها ممّا انعكست تأثيراته على الوضع العلمي فيها وعلى علمائها كالشيخ المفيد الذي أُقصي عنها سنة ٣٩٣ بسبب الخصومات الطائفية ، وكالشيخ الطوسي الذي أحرقت داره وكتبه بالكرخ مرّات عديدة بسبب هجمات السلاجقة من الخارج[٧٦] ، وإذا لاحظنا من زاوية أُخرى الظرف السياسي الذي كانت تعيشه بغداد وضعف مركز الخلافة فيها في العصر العبّاسي الثاني ودخالة العناصر الأجنبية فيه أدركنا حراجة الوضع آنذاك وتأزّمه . بيْدَ أنّ قم والريّ كانتا في منأى عن هذه الأجواء الساخنة ، وقد كان ابتعادهما وخروجهما عن سلطة الخلافة واستتباب الأمن فيهما السبب في نشاط الحركة العلمية فيهما على أثر انتقال طائفة من فقهاء ومحدّثي الكوفة وغيرها سيّما في القرن

الثالث الهجري إلى قم والريّ.

وعلى كل حال، فقد حافظت هاتان الحاضرتان على مرجعيتهما العلمية للعالم الإسلامي والشيعي مدّة من الوقت كما ظهر ذلك من مكاتبة سفير الناحية الحسين بن روح لعلماء قم.

الهوامش :

(١) لمزيد الاطّلاع على أوضاع القرن الرابع والازدهار الحاصل فيه سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي أو العلمي راجع كتاب (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) تأليف آدم متز تعريب الأُستاذ عبدالهادي أبو ريدة ، وإن كنّا ننكر ونتحفّظ على الكثير ممّا ورد فيه فيما يخصّ المذهب الإمامي .

(٢) انظر كتاب إكمال الدين وإتمام النعمة للشيخ الصدوق ، صفحة ٣٢ و٣٧ و ٤٠ و ٥١ و ٦٣ و ٦٧ و ٧٧ وما بعدها .

(٣) ذكر النجاشي في رجاله ص٣٩٩ ، رقم ١٠٦٧ ط . جماعة المدرّسين ستّ مؤلّفات ورسائل للشيخ المفيد في موضوع الغيبة أحدها باسم كتاب الجوابات في خروج الإمام المهدي عليه السلام ، والواصل إلينا غير هذه الستّة أربع رسائل في الغيبة (مطبوعة) نصّ في الذريعة ١٦ : ٨١ على ثلاثة منها ، فمجموع مؤلّفاته في الموضوع تكون عشرة إذا كان (الجوابات) الذي ذكره النجاشي غير هذه الرسائل وإلّا فالمجموع ستّة . لاحظ في ذلك كتاب نظرات في تراث الشيخ المفيد ١ : ٢٦٣ للعلّامة المحقّق السيّد عبدالعزيز الطباطبائي رحمه الله .

(٤) ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست ١٥٧ . وذكر أيضاً رسالة في الغيبة إلى أهل الريّ المقيمين بها وغيرهم . وذكر الشيخ النجاشي في رجاله ٣٨٩ ، رقم ١٠٤٩ ثلاث رسائل أُخرى في الغيبة أيضاً . ولعلّ الرسالة السابقة في الفهرست أحداها .

(٥) نصّ عليه النجاشي في رجاله : ٢٦١ رقم ٦٨٤ وقد طبع بتحقيق المحقّق السيّد الجلالي .

(٦) الصدوق على الإطلاق هو أبو جعفر محمّد بن عليّ الذي نحن بصدد ترجمته ، ويطلق أيضاً على أبيه (ابن بابويه) مع تقييدها بالأوّل ، وإذا أطلق الصدوق الثاني فإنّه يراد به الشيخ الصدوق أبو جعفر . ونقل عن الشيخ عليّ سبط الشهيد الثاني أنّه كان يعبّر بالصدوقين عن الشيخ الصدوق وأخيه الحسين بن عليّ ، حتى رأى جدّه الشهيد الثاني في المنام فقال له : إنّ الصدوقين يراد بهما محمّد وأبيه دون أخيه . وعلى كلّ حال ، فالشيخ الصدوق هو ثاني المحمدين الثلاثة (الكليني ، الصدوق ، الطوسي) وكنية الجميع (أبو جعفر) ، وربّما أطلق على الشيخ الصدوق (أبو جعفر الثاني) . وليعلم أنّ هذا اللقب لم يطلق ويشتهر في كلمات

الفقهاء والأصحاب إلّا على الشيخ أبي جعفر ﷺ ـ المترجم .

نعم ذكر النجاشي في ترجمته ليونس بن عبدالرحمن (ص٤٤٧) : « أنّ الشيخ المفيد وصف أبا القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه بالشيخ الصدوق أيضاً » انتهى . وأنت عليم بأنّ ذلك غير شائع في ابن قولويه ، فقد ذكر في الروضات ٢ : ١٧١ في ترجمة ابن قولويه ، نقلاً عن إيجاز المقال بأنّ ابن قولويه قد يلقّب أحياناً بالصدوق .

(٧) الفهرست للشيخ الطوسي : ١٥٧ .

(٨) سنوافيك بنقل نصوص التوقيعات الصادرة في حقّه .

(٩) رجال الطوسي : ٤٩٥ . ط . منشورات الرضي .

(١٠) الفهرست : ١٥٦ .

(١١) رجال النجاشي : ٣٨٩ .

(١٢) تاريخ بغداد ٣ : ٨٩ .

(١٣) سير أعلام النبلاء ١٦ : ٣٠٣ .

(١٤) رجال العلّامة : ١٤٧ .

(١٥) رجال ابن داود : ١٧٩ .

(١٦) السرائر ٢ : ٥٢٩ .

(١٧) الدراية : ٧٠ .

(١٨) الاجازات : ٣٩ .

(١٩) الرواشح السماوية : ١٥٠ ، ١٥٩ .

(٢٠) بحار الأنوار ١٠ : ٤٠٥ .

(٢١) مقابس الأنوار : ٧ .

(٢٢) الإجازات : ٦٦ .

(٢٣) الاجازات : ٩٨ .

(٢٤) الفوائد الرجالية ٣ : ٢٩٢ و ٣٠١ .

(٢٥) رجال النجاشي : ٢٦١ .

(٢٦) إكمال الدين وإتمام النعمة : ٥٠٢ ، باب التوقيعات . ط . مؤسّسة النشر الإسلامي .

(٢٧) الغيبة : ٣٠٨ ، ط . مؤسّسة المعارف الإسلامية .

(٢٨) رجال النجاشي : ٢٦١ ، وذكر المحقّق التستري في قاموس الرجال ٧ : ٤٣٦ أنّ الصحيح هو محمّد بن عليّ الأسود كما في الغيبة والإكمال ، لا عليّ بن جعفر بن الأسود كما ذكر

النجاشي .

(٢٩) الكامل في التاريخ ٨ : ٣٤ .

(٣٠) الفوائد الرجالية ٣ : ٣٠١ .

(٣١) الغيبة : ٣٠٩ .

(٣٢) عقيدة الشيعة : ٢٨٤ .

(٣٣) الفوائد الرجالية ٣ : ٢٩٩ .

(٣٤) الغيبة : ٣٠٩ .

(٣٥) بحار الأنوار ١٠ : ٤٠٥ .

(٣٦) روضات الجنّات ٤ : ٢٧٣ .

(٣٧) الغيبة للطوسي : ٣٢١ .

(٣٨) رياض العلماء ٢ : ١٤٨ .

(٣٩) الغيبة : ٣٠٩ .

(٤٠) فهرست منتجب الدين : ٤٦ .

(٤١) الدراية للشهيد الثاني : ١٢٥ .

(٤٢) وقد طبعت مكتبة آية الله المرعشي الرسالة المذكورة بإضافة اسمين آخرين فيكون المجموع ١٧ اسماً .

(٤٣) للتفصيل انظر مقدّمة معاني الأخبار للمحقّق الشيخ عبدالرحيم الربّاني حيث ذكر عشرين اسماً من أعيانهم ، وأيضاً لاحظ مقدّمة من لا يحضره الفقيه بقلم الحجّة المحقّق السيّد حسن الخرسان .

(٤٤) تنقيح المقال ٣ : ٤٢ .

(٤٥) رياض العلماء ٢ : ١٤٨ .

(٤٦) تاريخ بغداد ٣ : ٨٩ .

(٤٧) الفهرست : ٢٤٦ ، الفنّ الخامس من المقالة الخامسة .

(٤٨) لا يخفى على القارىء الفاضل أنّ كلّ طريق من هذه الطرق قد يتكرّر في أسانيد الفقيه مرّات عديدة بعدد الروايات المنقولة فيه ، فكلّ طريق من هذه الطرق هو واحد بالنوع لا بالشخص .

(٤٩) معجم البلدان ٤ : ٣٩٧ .

(٥٠) سفينة البحار ٢ : ٤٤٦ ، ط . القديمة .

(٥١) عن أحوال قم وتاريخها لاحظ ترجمة كتاب « تاريخ قم » ، ويعتبر هذا الكتاب أقدم المصادر

التي تحدّثت عن تاريخ هذه المدينة ، وأصل الكتاب باللغة العربية تأليف الحسن بن محمّد بن الحسن القمّي ٣٧٨ من معاصري الشيخ الصدوق ويقع في عشرين باباً وكلّ باب يشتمل على عدّة فصول . وأصل الكتاب مفقود ، والواصل منه ترجمته الفارسية للحسن بن عليّ بن الحسن بن عبدالملك القمّي المتوفّى سنة ٨٠٦ . إلّا أنّ هذا الأخير لم يشتمل على أكثر من خمسة أبواب . وقد طبع بتصحيح السيّد جلال الدين الطهراني سنة ١٣٥٣هـ . ق وراجع أيضاً عن تاريخ قم مجالس المؤمنين للقاضي نور الله التستري المجلّد الأوّل صفحة ٨٤ وأيضاً كتاب أنوار المشعشعين في شرافة قم والقمّيّين مؤلّف سنة ١٣٢٧ . ويظهر من كتاب فضائل السادات تأليف العالم المتبحّر السيّد أحمد الحسيني سبط المحقّق الكركي أنّ للكتاب ترجمة أُخرى تنقل فيه عنها كما يظهر أنّ النسخة العربية كانت عنده راجع حول الكتاب خاتمة المستدرك ٣ : ٣٦٩ .

(٥٢) رجال النجاشي : ١٦ . الفهرست : ٤ .

(٥٣) رجال النجاشي : ١٦ ، وليس له ذكر في رجال الكشيّ .

(٥٤) رجال النجاشي : ٨٢ .

(٥٥) رجال النجاشي : ٣٤٨ . الفهرست : ١٤٤ .

(٥٦) انظر رجال النجاشي : ١٧٧ .

(٥٧) رجال النجاشي : ٢٧ .

(٥٨) رجال النجاشي : ٢٦٠ .

(٥٩) رجال النجاشي : ٢٦١ .

(٦٠) رجال النجاشي : ٣٨٣ ، الفهرست : ١٥٦ .

(٦١) رجال النجاشي : ٧٦ .

(٦٢) رجال النجاشي : ١٢٣ .

(٦٣) اللوامع ١ : ١٤٩ ، طبعة قديمة بتاريخ ١٣٢٢هـ . وقد طبعت أجزاء منه مؤخّراً طبعة حديثة.

(٦٤) تاريخ قم : ١٨ ، ط . ١٣٥٣ق تصحيح السيّد جلال الدين الطهراني .

(٦٥) مصدر سابق .

(٦٦) للتقارب الكتبي بين لفظتي (بيست) بمعنى عشرين و (دويست) بمعنى مئتين كما احتمله المحقّق السنيّد الجلالي في مقدّمة كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة صفحة ٣٦ .

(٦٧) الأعراف : ٥٨ .

(٦٨) الغيبة للطوسي : ٣٩٠ .

(٦٩) ذكر المحقّق جلال الدين المحدّث الأرموي في تعليقاته على فهرست منتجب الدين صفحة ٣١٥ و ٣٢٧ أنّه لم يؤرّخ لمدينة الريّ إلّا اثنان من أعلام الإمامية وهما : العالم الجليل زين الكفاة الوزير بالريّ أبو سعد منصور بن الحسين الآبي المتوفّى بعد سنة ٤٣٢ صاحب كتاب (نثر الدرّ) و(تاريخ الريّ) وغيرهما ، والشيخ الفقيه المحدّث منتجب الدين عليّ بن بابويه الرازي من أعلام القرن السادس صاحب الفهرست وتاريخ الريّ .

(٧٠) وقد كانت كتبه تحمل على أربعمئة جمل أو أكثر ، وقال أبو الحسن البيهقي : وجدت فهرست تلك الكتب عشرة مجلّدات ، وقد استخرج السلطان محمود بن سبكتكين عند وروده الريّ كتب الكلام منها وأمر بإحراقها . انظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ١٩٧ .

(٧١) وعن أبي الحسن البيهقي في « تتمّة صوان الحكمة » في ترجمة أبي نصر الفارابي (محمّد بن محمّد بن طوخان) قال : وقد رأيت في خزانة كتب نقيب النقباء بالريّ من تصانيفه ما لم يقرع سمعي اسمه ، وأكثر ما رأيته كان بخطّه وخطّ تلميذه أبي زكريا يحيى بن عدي . انظر فهرست منتجب الدين ، قسم التعليقات ، التعليقة رقم ٣٥٤ ، ص ٣٥٠ .

(٧٢) رجال النجاشي : ٢٧٧ ، رقم ١٠٢٦ .

(٧٣) اكمال الدين : ٦٧ و ٥٣٢ .

(٧٤) معجم البلدان ٣ : ١٢٠ ، ط . دار إحياء التراث العربي .

(٧٥) المصدر نفسه : ١٢١ و ١١٧ .

(٧٦) البداية والنهاية ١٢ : ١١٩ ، ط . مؤسّسة التاريخ العربي ، لسان الميزان ٥ : ١٣٥ .

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ
وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ
وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ